الاتساق و الانسجام النّصي في التراث البلاغي العربي ـ كتاب البيان و التبيين للجاحظ أنموذجا ـ

الدكتورة :مريم بوجناح

المدرسة العليا للأساتذة ـ بوزريعة ـ

ملخص:

عرفت الدراسات اللّسانيات في السنوات الأخيرة تطورا ملحوظا تمخض عنه ظهور مدرسة علم اللّغة النصي أو ما يعرف بلسانيات النص (linguistique textuelle) و التي توصلت إلى أنّ النص هو أكبر وحدة في التحليل و التخاطب مركزة على جوانبه الصوتية ،المعجمية ، التركيبية، الدلالية ، الجمالية ، البلاغية ،فاختصت لسانيات النص بالبحث عن أهم العناصر التي تساهم مجتمعة في ترابط النص وتماسكه من أجل تحقيق اتساقه و انسجامه (cohérence et cohésion)، و لا شك بأن المستقرئ للتراث البلاغي العربي سيقف عند الكثير من الدراسات و التحليلات التي تجاوزت حدود الكلمة إلى البحث في آليات ترابط والتئام النص كوحدة شاملة متكاملة كما يتلمس فيها بعض بوادر مفاهيم لسانيات النص كما نجدها اليوم عند هاليداي في حديثه عن اتساق النص، وتون فان ديك في استحضاره للسياق، وروبرت دي بوجراند و دريسلر.....الخ ،لذلك سنحاول من خلال هذا العمل كشف اللثام عن بعض معالم و بوادر لسانيات النّص في التراث البلاغي العربي واخترنا لذلك كتاب الجاحظ المعنون بـ (البيان و التبيين)

الكلمات المفتاحية : لسانيات النّص، الاتساق ،الانسجام، التراث البلاغي العربي ، الجاحظ ، كتاب البيان و التبيين

Abstract:

Linguistics studies have in recent years known a remarkable development resulting from the emergence of the school of Text Linguistics, which found that the text is the largest unit in the analysis and communication focusing on its phonetic, lexicon, syntactic, semantic, aesthetic, rhetoric aspects. The TextLinguistics sought to find the most important elements that contribute together to the Cohesion of the text and also itsCoherence in order to achieve its Coherence and Cohesion. There is no doubt that the reader of the Arab Rhetorical Heritage will stand in many studies and analyzes that exceeded the limits of the word to research in the mechanisms of textual coherence and cohesiveness as a comprehensive integrated unit as also sought some of the signs of the concepts of Text Linguistics, as we find today at Halliday in his

talk about the Textual Cohesion, and *Teun A. van Dijk* in his naming of the context, also*Robert*De Beaugrandand Dressler ... Therefore we will try through this work to unveil some of the milestones and signs of the Text linguistic in the Rhetorical Heritage of the Arabic and we chose the book Al-Jahiz entitled KitabAl-Bayan waAl-Tabyin (The Book of Eloquence and Demonstration)

Key Words: Text Linguistics, Cohesion, Coherence, Arabic Rhetorical Heritage, Al-Jahiz, kitab AlBayan wa Al .Tabyin

تمهيد

يتبوأ الجاحظ إمام البلاغة مكانة مرموقة في مجال التصنيف و الإبداع بين كتاب النثر و نقاده بحيث كتب في شتى مجالات الفنون و المعارف، و يعدّ كتابه «**البيان و التبيين**» من أهم آثاره، و أعظمها نفعا، وأكثرها تداولا لموضوعاته الوفيرة و المتنوعة ، و ما تضمنه من مقاييس بلاغية و نقدية تقوم عليها صناعة النص، و ممن أشادوا بالكتاب و تأثروا به تأثرا واضحا "أبو هلال العسكري" بقوله: «..... **و كان أكبرها و أشهرها كتاب البيان و التبيين لأبي عثمان عمر بن بحر الجاحظ و هو لعمري كثير الفوائد، جم المنافع، لما اشتمل عليه من الفصول الشريفة.... و ما حواه من أسماء الخطباء و البلغاء و ما نبه عليه من مقاديرهم في البلاغة و الخطابة**»1

أما موضوع الكتاب فهو موسوعة كبرى في الأدب و الدرس البلاغي بحيث يبحث في خصائص التعبير البين و ما تمتاز به اللّغة من طاقات الإبلاغ و الإفصاح و ما تقتضيه طبيعة صياغة الخطاب الأدبي المتآلف، و تشعب في هذا المجال إلى ما يتصل بمستوى الصوت تم ما يتصل بمستوى اللّفظ ودلالته على معناه من حيث الوضوح و الملائمة، و كذلك ما يتصل بمستوى التحام الصياغة الشفوية الذي تتضامن أجزاؤه و تتآزر، و قد شمل الجاحظ في كلّ هذا النثر و الشعر، لذلك فقد حظي كتاب «البيان و التبيين» باهتمام عدد كبير من الباحثين القدامى و المحدثين اعترافا بقيمته و مكانته المتميزة وتقديرا لرياديته و فضله، فصدرت عنه دراسات و بحوث يصعب حصرها، و التي تناولت موضوعاته الثرية و استشرفت آفاقه الممتدة، و قد بلغت من كثرتها و تنوعها درجة أصبح يخيل معها لمن يرغب في أن يلج هذا الحقل أنه لم يعد له ثمة موضع أو مجال لإجراء بحوث أو دراسات جديدة، و لكن على الرغم من تنوع تلك الجهود و دقتها فإنه مازالت هناك جوانب خصبة تحتاج إلى التنقيب و التمحيص و من ذلك علاقة صياغة الخطاب الأدبي عند الجاحظ بلسانيات النص خاصة ما تعلق بعنصري الاتساق والانسجام.

نهدف من وراء هذا المقال الكشف عن اللمحات الذكية و الآراء النقدية الدقيقة الصائبة التي تنبه لها الجاحظ و فطن إليها في ذلك الوقت المبكر فيما يخص قضية صياغة الخطاب و قبوله من طرف السامع ولعلّه في ذلك يقترب من أحدث ما توصلت إليه النظريات اللّغوية النصية المعاصرة في تركيزها على مقبولية النص استنادا على معايير

النصية المتعارف عليها خاصة الاتساق و الانسجام، فالجاحظ كان على وعي تام بضرورة تحقيق التطابق التام بين اللّفظ و معناه إلى مستوى أعمق تبلغ فيه الصلة بين الطرفين مرحلة التفاعل الذي يكاد يحيلها كلا واحدا في بنية النّص التي تقوم على تلاحم بنية الدلالة مع الصوت في إطار التأليف و التركيب، فالملائمة عند الجاحظ بمثابة الميزان الذي تحدد به بلاغة النص.

معالم الاتساق و الانسجام النصي في كتاب البيان و التبيين

1. أهمية الصوت و دوره في اتساق و انسجام النصوص عند الجاحظ

بما أن اللّغة عبارة عن ظاهرة صوتية فإن أهمية الصوت تأتي من كونه يمثل الجانب العملي للّغة ويقدم طريق الاتصال المشترك بين المتحدث و المتلقي لذلك قال ابن جني: « **اللغة أصوات يعبر بها كل قوم عن أغراضهم**»2.

و لذا بدأ الجاحظ حديثه بالصوت و عدّ الأصوات آلة اللّفظ و جوهره قال:« **و الصوت هو آلة اللفظ و هو الجوهر الذي يقوم به التقطيع و به يوجد التأليف و لن تكون حركات اللسان لفظا و لا كلاما إلا بالتقطيع و التأليف**»3

فالإظهار عنده من الصفات التي تتصل باللسان و القدرة على النطق السليم، و في ضوء هذا دار حديث الجاحظ عن مستوى الأصوات المفردة من ناحية مقدرة النطق و سلامة مخارج الحروف و قوتها وما جرى هذا المجرى من الصفات الممدوحة في المتكلم، و كذلك من ناحية عيوب النطق و نواحي القصور فيه، و يقرر الجاحظ في أكثر من موضع في كتابه أن حسن البيان يتطلب من المتكلم أن يكون منطلق اللسان و أن يخرج الحروف من مخارجها بصورة سليمة، كما اهتم الجاحظ بالبحث الصوتي و أثره في قبول الرسالة المتلاحمة عندما تعرض للخطابة، و ما ينبغي أن يتصف به الخطيب و ذلك عن طريق تمكينه من أصول فنه، و إحكام أدواته التي من بينها قوة الصوت و مقدرة النطق و سلامة مخارج الأصوات ،إذ على قدر سلامة النطق و فصاحته تكون درجة الإبانة و سلامة التأليف.

و الجاحظ في حديثه عن النطق و ما يتصل به يعرض بطريقة العالم اللغوي المتخصص بعض الأصوات و مخارجها، و جعل النقص في آلة اللفظ (الصوت) نقصا في الإقناع و ضرب لنا عن ذلك مثالا يخص سيدنا موسى إذ قال:« **و سأل الله موسى صلى الله تعالى عليه و سلم حين بعثه إلى فرعون بإبلاغ رسالته و الإبانة عن حجته و الإفصاح عن أدلته فقال حين ذكر العقدة التي كانت في لسانه و الحبسة التي كانت في بيانه (و احلل عقدة من لساني يفقهوا قولي)***»4

و كذلك « واصل بن عطاء» الذي وصل إلى نتيجة مفادها أن تمام البيان يحتاج إلى تمام الصوت فكان أشد الناس حرصا على امتلاك هذه الآلة لكونه كان ألثغ*، و عنه قال الجاحظ: « **و لما علم واصل بن عطاء أنه ألثغ فاحش اللثغ و أن مخرج ذلك منه شنيع و أن البيان يحتاج إلى تمييز.... و إلى تمام الآلة و إلى سهولة المخرج و جهارة المنطق و تكميل الحروف..... و من أجل الحاجة إلى حسن البيان و إعطاء الحروف حقوقها من الفصاحة رام – واصل بن عطاء– إسقاط الراء من كلامه و إخراجها من حروف منطقه فلم يزل يكابد ذلك ..... حتى انتظم له ما حاول واتسق له ما أمل**»5

و على الرغم من أن اللغويين هم اللذين بدؤوا الحديث عن الأصوات و مخارج حروفها و سلامتها و قوتها و اختلافها و توافقها، فإن الجاحظ كان له فضل السبق في نقل هذا البحث إلى ميدان التطبيق في المؤلفات البلاغية، بحيث غدا الحديث عن الصوت و استعماله مبحثا أساسيا في مجال الدرس البلاغي و لم يقف الجاحظ عند هذا القدر من الحديث عن الصوت بل فصّل الكلام عن آفات النطق وعيوبه التي تعتري المتكلم، ثم عرض كيفية علاج بعضها وهو في ذلك كان سباقا في مجال تطبيق أحدث نظريات علم اللّغة وحقولها في الميدان البلاغي و من حيث الآفات و العيوب التي تعتري أعضاء جهاز النطق فبعضها يعود إلى عيب خلقي في الجهاز، و قد يعود بعضها إلى مخالطة العجم أو النشأة بينهم بحسب رأي الجاحظ وحصر أكثر عيوب النطق شيوعا بقوله:« **و أحدهما ألوم من صاحبه والألسنة إليه أسرع، اللجلاج و التمام و الألثغ و الفأفأ و ذو الحبسة و الحكلة و الرثة و ذو اللفف**»6

فالجلاج هو المتردد في نطقه، و التمام هو من يرد كلامه إلى التاء و الميم، و الألثغ من يميل لسانه من السين إلى الثاء أو من الراء إلى الغين، و الفأفأ من يردد الفاء، و ذو الحبسة من لا يسمع قوله، و الحكلة عادم الإبانة و الإفصاح في كلامه، و الرثة العجول في كلامه، و ذو اللفف هو العي الذي إذا تكلم ملأ لسانه فمه.

أما العيوب الحادثة في النطق فأبرز أسبابها سقوط بعض الأسنان كما حدث مع معاوية بن سفيان عندما سقطت ثناياه فكانت مانعا من موانع التعرض لموقف الخطابة ،إذ قال الجاحظ:« **و لم يتكلم معاوية على منبر جماعة مذ سقطت ثناياه في الطست**»7

و في هذا المقام كذلك نقل الجاحظ قول سهل بن هارون:« **لو عرف الزنجي فرط حاجته إلى ثناياه في إقامة الحروف و تكميل جميل البيان لما نزع ثناياه**»8

كما شمل حديث الجاحظ عن الصوت الجانب التركيبي للصوت اللّغوي داخل النص منطوقا كان أو مكتوبا انطلاقا من أهمية التأليف الصوتي و قيمته البلاغية داخل النص في شكله و جوهره، و لذلك تناول الجاحظ

مصطلح« **التلاؤم**» الذي أطلق عليه تسمية« **الاقتران**» و قام الجاحظ بالتمييز بين ما سماه (اقتران الحروف) و بين ما سماه (اقتران الألفاظ).

- **اقتران الحروف:**

و يقصد به خلو الكلمة من تنافر الحروف و افتراقها عن بعضها البعض صوتيا، و قدم أمثلة عن هذا الافتراق الصوتي بقوله:«..... **فأما افتراق الحروف فإن الجيم لا تقارن الظاء و لا القاف و لا الطاء و لا الغين بتقديم و لا تأخير و الزاي لا تقارن الظاء و لا السين و لا الضاء و لا الذال بتقديم ولا تأخير و هذا باب كثير و قد يكتفي بذكر القليل حتى يستدل به على الغاية التي إليها يجري**»9.

و عليه فإن تنافر الحروف هو من العيوب التي تطرأ على اللّفظ داخل النص و تخل بقيمته البلاغية و تخرجه عن دائرة الفصاحة، أما اقتران الحروف عنده يؤدي إلى تحقيق التجانس و التناغم الصوتي فتكون حروف الكلمة متآلفة متآخية سهلة النطق على اللسان.

- **اقتران الألفاظ:**

يتصل تنافر الحروف في الألفاظ المؤلفة للنّص اللّغوي بما ذكرناه في تنافر الحروف في اللّفظة المفردة ،و قد يكون اتصال ذلك بالتأليف أهم لأن اللّفظة المفردة لا يستمر فيها هذا التنافر إلا لمسافة محدودة في حين أنه يأخذ في التركيب بعدا زمنيا ممتدا يؤدي إلى زيادة الثقل و التنافر، و يسوق الجاحظ في هذا المقام أمثلة و شواهد وقعت في تنافر الحروف في الألفاظ داخل التركيب النّصي فخرجت عن الفصاحة و أصبحت بعد ذلك مضرب المثل للتنافر في مؤلفات البلاغيين، و من ذلك قول الشاعر:

و قبر حرب بمكان قفر و ليس قرب حرب قبر

و علق الجاحظ على هذا البيت بقوله:« **و لما رأى من لا علم له أن أحدا لا يستطيع أن ينشد هذين البيتين ثلاث مرات في نسق واحد فلا يتتعتع و لا يتلجلج و قيل لهم إن ذلك إنما اعتراه إذ كان من أشعار الجن صدقوا بذلك**»10

ففي هذا البيت دلالة على أن« **من ألفاظ العرب ألفاظ تنافر و إن كانت مجموعة في بيت من الشعر فلا يستطيع المنشد إنشادها إلا ببعض استكراه**»11

و من ذلك قول بن يسير في أحمد بن يوسف حين استبطأه:

لم يضرها و الحمد لله شيء و انثنت نحو عزف نفس ذهول

و عقب الجاحظ على هذا البيت بقوله« **فتفقد النصف الأخير من هذا البيت فإنك ستجد بعض ألفاظه يتبرأ من بعض**»12

فأساس التنافر عند الجاحظ قائم على كراهية التماثل المولد للثقل سواء بالنسبة للألفاظ المنتظمة داخل التركيب اللغوي أو للحروف المنتظمة في الألفاظ المفردة.

و قد شرح مُحَمَّد خطابي أسباب تنافر الحروف المكونة لألفاظ البيت الشعري الأول و الثاني انطلاقا من نظرة الجاحظ و آرائه في هذا الموضوع بقوله: إن التآلف عند الجاحظ مرتبط بتباعد مخارج الأصوات سواء في الكلمة الواحدة أو في الكلمات المتجاورة و التنافر مرتبط بتقارب المخارج (أو تماثلها)، لذا استقبح قول الشاعر (و قرب حرب....) و الشطر الثاني من قول ابن يسير (و انثنت نحو عزف نفس ذهول)، لكن ما الداعي إلى الاستقباح؟ نلاحظ أن التوزيع الصوتي في الأول تهيمن عليه أصوات القاف، الباء، الراء، الحاء و يتجلى ذلك في معدل تكرارها:

ق ⟵ 5 مرات

ب ⟵ 7 مرات

ر ⟵ 7 مرات

ح ⟵ مرتان

مع تكدس معدل التكرار في الشطر الثاني:

ق ⟵ 5 مرات

ب ⟵ 4 مرات

ر ⟵ 4 مرات

و الذي جعل الكلمات متنافرة هو تكرارها و بالتالي تكرر نفس الأصوات.13

و في الأخير استخلص مُحَمَّد خطابي نتيجة جد مهمة حددت مقاييس البعد الصوتي عند الجاحظ ودوره في التلاحم النصي و منه اتساقه و انسجامه، و مفادها أن:« **تلاحم الأجزاء مرتب عن تلاؤم الأصوات المشكلة للألفاظ و تباعد المخارج المكونة للكلمات مما يجعل تجاورها ممكنا و بالتالي يسهل على اللسان النطق بها و على المنشد إنشادها، بينما تفكك الأجزاء (التباين و التنافر) ينتج عن تقارب المخارج، بل عن تكرار نفس الأصوات في كلمات متجاورة في شطر واحد أو بيت و من ثم تشق على اللسن و يصعب على المنشد إنشادها**»14

و يزيد الجاحظ موضوع التنافر وضوحا من خلال ما يسوقه من أمثلة و شواهد شعرية للتدليل على رأيه ،فيورد مما أنشده خلف الأحمر و فيه يشبه الألفاظ المتنافرة بـ« **أولاد العلات**» و ذلك في قوله:

وبعض قريض القوم أولاد علة يكد لسان الناطق المتحفظ

المعنى اللغوي (لأولاد علة) هم الأخوة من أب واحد و أمهاتهم شتى.

ثم شرح الجاحظ معنى البيت بقوله:« **فإنه يقول إذا كان الشعر مستكرها و كانت ألفاظ البيت من الشعر لا يقع بعضها مماثلا لبعض كان بينهما من التنافر ما بين أولاد العلات و إذا كانت الكلمة ليس موقعها إلى جنب أختها مرضيا موافقا كان على اللسان عند إنشاء ذلك الشعر مؤونة**»15

و من هذا القبيل استشهد كذلك بما أنشده أبو البيداء الرياحي:

و شعر كبعر الكبش فرق بينه لسان دعي في القريض دخيل

ثم شرح الجاحظ مقصود البيت بما يلي:« **و أما قوله (كبعر الكبش) فإنما ذهب إلى أن بعر الكبش يقع متفرق غير مؤتلف و لا متجاور و كذلك حروف الكلام و أجزاء الشعر من البيت تراها متفقة لمس و لينة المعاطف سهلة و تراها مختلفة متباينة و متنافرة مستكرهة تشق على اللسان تكده و الأخرى تراها سهلة لينة و رطبة متواتية سلسة النظام خفيفة على اللسان، حتى كأن البيت بأسره كلمة واحدة و حتى كأن الكلمة بأسرها حرف واحد**»16

و بعدما فرغ الجاحظ من حديثه عن تنافر الألفاظ انتقل إلى تلاؤمها ليعرف لنا أجود الشعر ومعاييره بقوله:« **و أجود الشعر ما رأيته متلاحم الأجزاء سهل المخارج فيعلم بذلك أنه أفرغ إفراغا جيدا و سبك سبكا واحدا فهو يجري على اللسان كما يجري على الذهان**»17

ثم يدلل على رأيه في التلاحم بشواهد من هذا الشعر الجيد المتميز بالسلامة من حيث تنافر الألفاظ والصحة من حيث تآلف و التحام المقاط، و مثاله في ذلك بعض ما أنشده الثقفي و منه:

رمتني و ستر الله بيني و بينها عشية أرام الكناس رميم

رميم التي قالت لجارات بيتها ضمنت لكم أن لا يزال يهيم18

فالتلاؤم الصوتي عند الجاحظ يعني انسجام الحروف في بنية الكلمة،و انسجام الكلمات في إطار النظام اللّغوي إذا ألّف بينها في نسق واحد، مما يؤدي إلى تحقيق عناصر الجمال الصوتي للنص و منه مقبوليته من طرف السامع.

2. أهمية دلالة اللفظ و دورها في اتساق النصوص و انسجامها عند الجاحظ:

فيما يتصل بالعلاقة بين اللّفظ و معناه يؤكد الجاحظ أن الوضوح معيار من معايير البلاغة ومظهر من مظاهر جمالها، فإذا لم تتضح المعاني فإن الكلام لا يحقق الهدف أو الغرض الذي سيق من أجله و هو إفهام المتلقي و التأثير فيه، و في هذا المجال يقول الجاحظ:« **و أحسن الكلام ما كان قليله يغنيك عن كثيره و معناه في ظاهر لفظه**» 19، و بناء على ذلك كان الفهم و الإفهام عند الجاحظ هما الهدف الأول من عملية الاتصال فلا يكون البيان بيانا إلاّ إذا بلغ بوضوحه غاية الإفهام إذ يؤكد على هذا الرأي **بقوله**:« **و قدر وضوح الدلالة و صواب**

الإشارة و حسن الاختصار و دقة المدخل يكون إظهار المعنى و كلما كانت الدلالة أوضح و أفصح كانت الإشارة أبين و أنور»20 ، و لأهمية مقياس الوضوح و ضرورة توافره في الكلام البليغ أخذ الجاحظ يوصي به المبدعين و يرغبهم فيه و يبين لهم السبيل إلى تحقيقه، و ذلك من خلال جملة من المعايير كوضوح الألفاظ المفردة (البعد عن الغريب الوحشي) لذلك عاب على اللّغويين اختيارهم للغريب فهو يرفض الغوص في الغريب و الغامض لأنه يخرج اللّفظ من دائرة الفصاحة و أنه ليس من أخلاق الكتاب و لا آدابهم، و كمعيار آخر تطرق الجاحظ إلى ضرورة تجنب التكلف باعتباره من العيوب التي تنال من فصاحة اللفظ، و حذر الخطباء والبلغاء منها بقوله: « **ثم أعلم أبقاك الله أن صاحب التشديق* و التقعير* و التقعيب* من الخطباء البلغاء مع سماحة التكلف و شنعة التزيد أعذر من عي يتكلف الخطابة و من حصر يتعرض لأهل الاعتياد و الدربة ومدار اللائمة و مستقر المذمة حيث رأيت بلاغة يخالطها التكلف و بيانا يمازحه التزيد»**21، على أن الإغراب و التوعر الذي رفضه الجاحظ و ألح على اجتنابه لا يعني مطلقا قبوله الجنوح الذي يصل حدّ الابتذال في التعبير، و إنما وقف ضد هذه الصفة و حذر من هذا النوع من الكلام الذي يناقض الفصاحة ،و كمعيار ثالث تطرق إلى ضرورة (التوسط بين الغرابة و الابتذال) فالوضوح في مذهب الجاحظ وضوح من نوع خاص ينأى عن الابتذال و عن الإغراب و يقع موقع الوسط بين طرفي الغرابة و الابتذال، و قد صرح بمذهبه الوسطي في استعمال اللغة بقوله:« **فالقصد في ذلك أن تجتنب السوقي و الوحشي و لا تجعل همك في تهذيب الألفاظ و شغلك في التخلص إلى غرائب المعاني و في الاقتصار بلاغ و في التوسط مجانبة للوعورة و الخروج من سبيل من لا يحاسب نفسه»**22، و قد قال الشاعر في هذا:

عليك بأوساط الأمور فإنها نجاة و لا تركب ذلولا و لا صعبا

و قال آخر: **لا تذهبن في الأمور فرطا لا تسألن إن سألت شططا**

و كن من الناس جميعا وسطا

و يبدو أن حرص الجاحظ على المستوى المتوسط من اللغة الأدبية رغبة منه في تحقيق عملية التبليغ و التواصل خاصة فيما يتعلق بفن الخطابة الذي يرفض الغريب و يتشبث بالسهل الواضح المفهوم.

كما أشار الجاحظ إلى قضية وضوح الألفاظ في إطار النظام اللّغوي (الكلام المركب) فيكون المعنى مفهوما دون مشقة في اكتشافه أو البحث عنه، و هذا ما يجرنا إلى قضية ملاءمة اللّفظ للمعنى وقد أشار الجاحظ إلى عنصر الملاءمة في كتابه تحت عدد من التسميات كالمشكالة و المطابقة ومراعاة الحال و المقام، و كلّها تدور حول مفهوم إجادة فن القول و مناسبته للمتلقي، و يصرّ الجاحظ على أن الهدف الأساس الذي يحرص عليه الأديب من عملية الملاءمة هو إصابة الغرض من خطابه الأدبي مع إمتاع المتلقي فلكلّ من الألفاظ و المعاني و الأحوال و

المقامات و المتلقين أنواع تتعدد و تختلف وعلى الأديب أن يختار من كلّ عنصر ما يلائم غيره من العناصر التي ترتبط به لبناء النص الأدبي، فالتعبير اللّغوي يختلف اختلافا صوتيا و دلاليا من تعبير لآخر تبعا لاختلاف المواقف، و تبعا لطبيعة ما عليه المتلقي من حالات نفسية و غيرها.

و فيما يتصل بعنصر الملاءمة بين الفظ و المعنى و مدى انتظامه الداخلي في بنية النّص الأدبي يحرص الجاحظ على ضرورة مراعاة العلاقة بين الألفاظ و المعاني عن طريق الدقة في اختيار الألفاظ الملائمة للمعاني على نحو يتيح لجوهر المعنى أن يبدو واضحا و مؤثرا، إذ يرى الجاحظ أن لكلّ ضرب من ضروب المعاني ما يناسبه من الألفاظ فسخيف اللّفظ يرتبط بسخيف المعنى و شريف اللّفظ يرتبط كذلك بشريف المعنى و ذلك بقوله:« **و من أراد معنى كريما فليلتمس له لفظا كريما فإن حق المعنى الشريف اللفظ الشريف**»23

و العبرة من هذه الملاءمة تلك الطاقات الجمالية التي تضفيها على النص الأدبي فتزيد الرغبة في نفوس المتلقين في مزيد من التلقي الممتع، لذلك قيل أن مدار البلاغة على الإمتاع ، و لابدّ من التنويه إلى أن تناول الجاحظ لهذه القضية يلتقي مع ما وصل إليه علماء اللّغة الغربيين في العصر الحديث، فقد أخذ بهذه النظرية العالم "**دي سوسير**" و لكن الغربيين ينسبون هذه الفكرة إلى علمائهم خاصة "**أولمان**" مشيرين إلى أنه أول من تطرق إلى العلاقة بين اللفظ و المعنى، و إنما الحقيقة أن الجاحظ هو أول من أشار إلى علاقة الاستدعاء و التكامل بين اللّفظ و المعنى و ليس **أولمان24**

3. أهمية تآلف الصياغة الفنية و دورها في اتساق النصوص و انسجامها

لقد تناول الجاحظ مستوى التحام الصياغة الفنية في بنية النّص بوصفه وحدة حية و كيانا عضويا متلاحم الأجزاء و منسجم العناصر في بنيته، و عبر عن كلّ عنصر من عناصر النص بألفاظ القران والالتحام، إذ يرى الجاحظ أن جواهر الكلام توجد في:« **الألفاظ المتخيرة و المعاني المنتخبة و على الألفاظ العذبة و المخارج السهلة و الديباجة الكريمة و على الطبع المتمكن و على السبك الجيد وعلى كل كلام له ماء و رونق**.....»25 و عليه فإن السبك و الانتظام فعالية تضاف إلى اكتمال الألفاظ والمعاني في بنية الخطاب حتى تبدو القصيدة كالبيت و البيت كالكلمة و الكلمة كالحرف لأنها وضعت وضعا واحدا و سبكت سبكا واحدا بانتظام و التحام على نحو لا يقبل الفصل أو التقسيم وهذا هو التماسك النصي الذي اهتمت به لسانيات النّص، فإذا اختل هذا التماسك اختلت بنية القصيدة ففسد معناها و في هذا الصدد يورد الجاحظ قول الشاعر عمر بن لجا لأحد الشعراء متحديا بقوله:« **أنا أشعر منك لأني أقول البيت و أخاه و أنت تقول البيت وابن عمه**»26، فقول البيت و أخيه يشمل بنية القصيدة بأكملها من حيث التحام مستواها الصوتي بمستواها المعنوي اتساقا و انسجاما حتى تأتي القصيدة في النهاية كلا واحدا متآلفا.

و من أبعاد تلاحم الصياغة و تماسكها في العمل الأدبي عند الجاحظ، تعلق أول الكلام بموضوعه تعلقا تاما بحيث تدل بدايته على محتواه و يستدعي صدره عجزه، لأن الألفاظ يدّل بعضها على بعض و في هذا السياق يورد الجاحظ تفسير ابن المقفع للبلاغة في قوله:« **و ليكن في صدر كلامك دليل على حاجتك كما أن خير أبيات الشعر البيت الذي إذا سمعت صدره عرفت قافيته**»27

و بناء على ارتباط الكلام ببدايته و تعلقه به فرقوا بين أنواع الخطابة من زاوية المقدمة لأن لكل خطبة صدر يدل على عجزه، بحيث من يسمع صدرها يقف على عجزها و في ذلك يقول الجاحظ رواية عن شرح إسحاق بن حسان لتعريف المقفع للبلاغة:« **كأنه يقول فرق بين صدر خطبة النكاح و بين صدر خطبة العيد و خطبة الصلح و خطبة المواهب، حتى يكون لكل فن من ذلك صدر يدل على عجزه فإنه لا خير في كلام لا يدل على معناك و لا يشير إلى مغزاك و إلى العمود الذي إليه قصدت والغرض الذي إليه نزعت**»28

و في هذا الإطار يؤكد الجاحظ على أهمية وحدة الخطبة و ضرورة الملائمة و الانسجام بين مقدمتها و أفكارها حتى تضمن اقترانها و تلاحمها.

إن هذه النظرة إلى كتاب البيان و التبيين مكنتنا لا محالة من الوصول إلى قناعة لا شك فيها من أن الجاحظ كان بحق عالما لغويا نصيا في ثوب بلاغي، بحيث اتخذ من منابر البلاغة نبراسا لشق الجانب اللّغوي للنص الأدبي من حيث التحام عناصره بدءا من المستوى الصوتي ثم الصياغة اللّغوية والفنية علاقتهما بقبول الرسالة من طرف السامع وصولا إلى اتساقه و انسجامه البلاغي النصي.

قائمة المصادر و المراجع :

1 . أبو هلال العسكري ،كتاب الصناعتين ، تحقيق علي محمد البجاوي و محمد أبو الفضل إبراهيم،ط2، مكتبة الحلبي ،القاهرة، 1971، ص11

2 . ابن جني، الخصائص، ج1، تحقيق محمد علي النجار،ط2، دار الهدى، بيروت، ، 1983، ص33

3 . أبو عثمان عمر بن بحر الجاحظ ،البيان و التبيين ،ج1 ،تحقيق درويش جويدي المكتبة العصرية، بيروت، ط2 ،2000 ، ص 58

*سورة طه ،آ27

4 . المصدر السابق، ص11

*ألثغ :من يميل لسانه من السين إلى التاء أو الراء إلى الغين، وواصل بن عطاء مال لسانه من الراء إلى الغين.

5 . المصدر نفسه ،ص16

6المصدر نفسه ،ص15

7 . المصدر نفسه ،ص16

8. المصدر نفسه،ص46

9. المصدر نفسه ،ص52

10. المصدر نفسه ،ص49

11. المصدر نفسه ،ص49

12. المصدر نفسه،ص 50

13. محمد خطابي، لسانيات النّص، مدخل إلى انسجام الخطاب ،ط2، المركز الثقافي العربي ، المغرب ، 2006،ص143

14. المصدر نفسه ،ص144

15 . الجاحظ البيان و التبيين ،ج1 ،ص50

16 . المصدر نفسه ،ص50 . 51

17 . المصدر نفسه ،ص50

18 . المصدر نفسه ، ص51

19 . المصدر نفسه ، ص61

20 .المصدر نفسه ص56

21. المصدر نفسه ص 15

*المتشدق : من تكلّف البلاغة

*التقعير: النطق بأقصى الحلق

*التقعيب :تقصير الكلام

22. المصدر السابق، ص158

23. المصدر نفسه ،ص 51

24. السيد أحمد خليل، المدخل إلى دراسة البلاغة العربية، ط1، دار النهضة العربية، بيروت، 1968، ص37 . 38

25 .الجاحظ ،البيان و التبيين،ج3 ،ص205

26 .الجاحظ ، البيان و التبيين ،ج1 ،189

27 .المصدر نفسه ، ص78

28 . المصدر نفسه ،ص81